

الأبعاد الخفية لمشروع الشرق الأوسط الكبير .

فتحي بالحاج

الشرق الأوسط الكبير.. القبيلة والطائفة على أنقاض الوطن العربي الفردية والقبيلة في مواجهة الأمة العربية! لا يمكن باية حال من الأحوال اعتبار فكرة "الشرق الأوسط الكبير" جديدة. فهذا الضجيج الذي اقام الدنيا ولم يقعدا يخفي الهدف الحقيقي للمشروع وهو مواصلة تفتيت الأمة العربية وتفكيكها. فالاصلاح والتغيير الثوري أو السلمي هي مسألة حياتية بالنسبة للعرب، كما هي بالنسبة لكل الأمم والشعوب الأخرى. لذلك فان قلب البنى التقليدية المعيقة للتقدم والتأسيس لحدثا جديدة تستفيد من الامكانيات المتاحة في الأمة العربية هو الطريق الوحيد لبناء مجتمع الكفاية والعدل. فالشعارات العامة التي حاولت القوى الخارجية الالتحاف بها تخفي المطلب الاستعماري الجوهرى وهو "بلاش حديث عن العروبة"، وفكرة الوحدة العربية الاطار الوحيد لتحقيق تنمية حقيقة. وقد نجحت الدوائر الاستخراجية في طرح اشكالية تنمية الوطن العربي وتطويره في ابعاد جديدة ومستويات اخفت جوهر وحقيقة الصراع الدائر على الأرض العربية. فقد طرح المشكل في شكل يخفي الحقيقة ويطمسها. فاصبح السؤال هل العرب مع الاصلاح أم ضد الاصلاح؟ مع الحرية والديمقراطية أم هم ضد الحرية وضد الديمقراطية؟ ان الاجابة من البديهيات والمسلمات التي لا تستحق عناء التفكير. فليس هناك أمة في الأرض تزيد التخلف وليس هناك شعب يريد لنفسه القمع والاستبداد وليس هناك بشر يرفض التقدم والحرية.. ولكن هذه البديهية تتجاهلها قوى النهب العالمية. فتغض الطرف عن جرائمها في حق العرب وتقدم نفسها نفاقا أنها حريصة على تشجيع الحرية والديمقراطية في الوطن العربي. لذلك نرى أن سماع مثل هذه الشعارات تدعونا الى التآني وتمحيص هذه الشعارات البراقة وضرورة التأمل فيما وراء الكلمات ومطالبة ملحة بعدم التسرع واعمال العقل بعد النظر فيما طرح. لمعرفة من يدعو الى الاصلاح؟ وما هو مضمون الاصلاح؟ ولماذا الاصلاح الآن بالذات؟ عندما نسمع كلمات الاصلاح والديمقراطية والحرية من أفواه المستبدين وأفواه مصاصي دماء الشعوب يحق لنا ان نضع نقاط استغراب. يحق لنا أن نستغرب عندما نسمع من يدعي أنه يعطي دروسا في الحرية لشعب ترعرع عليها، وتربى على أن الناس سواسية كأسنان المشط وحفظ عن ظهر قلب شعار متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار... يحق لنا أن نستغرب عندما نسمع من يلقي محاضرات في حقوق الانسان على شعب منذ بداوته الأولى عاش يتغنى بالحرية ويحياها.. على شعب أطفاله يفتحون عيونهم ووعيمهم وتفكيرهم على أن في هذا الكون لا كبير وأن الكبر والعظمة هي من صفات ربانية هو وحده لا شريك له في هذه الصفات، هو الذي يستحق الخوف والخشوع والرهبنة، هذا الواحد الأحد في عالم آخر... وأن الحساب والعقاب هو في اليوم الآخر وأن هذا الحساب والعقاب هو من شيمة الله وحده سبحانه وتعالى .. وأن محمدا ابن عبد الله وحده صاحب الرسالة ما هو الا بشر مثلنا .. أما عندما نتأكد أن الواعظ الداعية هو بوش الصغير من على منبر ادارة عرفت بعداءها للحق العربي. فانه يحق لنا الانتفاض والرفض. ان مشهد بوش وهو يعلن تمسكه بتصدير الديمقراطية والحرية يستحق الازدراء.. عندما يأتي المشروع من حكومة محافظة دينية متطرفة في دولة متغترسة استعمرت شعوب وانتهكت حضارات واستلبت خيرات.. عندما يأتي المشروع من هذه الجهات فيجب أن لا تخدعنا الشعارات البراقة ولا نسقط في الأخذ بظواهر الأمور. الحقيقة التي على العرب وكل أحرار العالم معرفتها هو أن المشروع جاء لتغطية انتهاك مباشر لأرض عربية واستعمارها وابتزاز خيراتها أولا ثم لتأبيد واقع تفتيتي تجزئني في الوطن العربي. المشروع يأتي في اطار سياسة احتواء جديدة قديمة تهدف أول ما تهدف هو شراء ضمان وعقول نخبة عربية وجماهير أنهكها الاستبداد والفقر. فهذا الاستبداد ما كان له أن يستمر لولا مساندة بوش وأمثاله وهذا الفقر والظلم ماكان له أن يعم لولا هذا النهب المنظم

للخيرات العربية. حول مصطلح الشرق الأوسط الكبير: "الشرق الأوسط" هذه التسمية هي تسمية قديمة من قبل القوى الاستعمارية التي سيطرت على الوطن العربي. اضافة كلمة الكبير لا تستطيع أن تغير من الطبيعة الاستعمارية والتي تهدف الى طمس واستبعاد أي تعريف على اساس قومي للوطن العربي. وهي في نهاية الأمر مقدمة للتسليم بالأمر الواقع وقبول كل التغييرات التي فرضت على العرب من القوى المعادية للتقدم العربي. أما عن مهمة "الاصلاح والحرية والديمقراطية" فهي ذات المهمة القديمة " تحضير الشعوب المتوحشة". سياسة الاحتواء ليست جديدة على الوطن العربي العربية والعالم، واستبدال المفردات أو المصطلح لا يغير من المضامين شيئا. فالعبرة ليس بالكلمات التي تصاغ بل بالمضامين التي تصوغ حياة البشر. ان هذه الشعارات البراقة لا تترجم أبداً الى إلغاء السياسة الاستعمارية، أو استبدالها بما هو متناقض معها، أو مغاير لها، وكما بحثت قوى الاستعمار الأوروبي عن مصطلحات تحتوي بوساطتها الأرض العربية، وتحقق من خلالها أغراضاً، وجدتها في ذلك الوقت ضرورية لها كقوى مهيمنة على ثروات المنطقة وأسواقها وممراتها وجغرافيتها. فان أمريكا لم تجتهد كثيراً في هذا المجال فهي تعيد انتاج اسلوب قديم استعملته ربيباتها الاستعمارية وفشلت. اذا كان مصطلح "الشرق الأوسط الكبير" يستوعب المنطقة الجغرافية الممتدة بين مصر وفلسطين إلى إيران والخليج العربي وباكستان وفي بعض الأحيان يتمدد ليغطي جغرافية أفغانستان وقبرص والمغرب العربي. فانه لا يختلف مضمونا ولا شكلا مع مشروع الشرق الأوسط الذي ساد ابان الهجمة الأوروبية الأولى، أو مصطلح السوق الشرق أوسطية كما طرحه بيريز، بعد عدوان ١٩٩٠. يريدون لهذا الاطار الفضفاض أن يغطي مجموعة من التجمعات والقوميات والأمم . وهكذا يتم فرض الأمم التي تتمتع بالدولة القومية تركيا، ايران على دويلات التفكيت والتجزئة العربية التي أنشأتها دول النهب بداية مع الحرب العالمية الأولى. ويتسع هذا الاطار الى المجموعات الغربية التي تم فرضها بعد سياسة "تطهير" للأرض العربية. فإذا كانت التسميات القديمة أسست للتجزئة فان المشاريع والتسميات الحديثة تحاول تشريع التجزئة وتعطيها بعدا تاريخيا. وكأنه لا توجد أمة ولا يوجد شعب ولا جماعة بشرية تنادي وتطالب منذ قرابة قرن بحقها المشروع في استرجاع وحدتها وبناء دولتها القومية مثل أمم الأرض جميعا. خطورة المصطلح أنه يهدف الى احلال لغة جديدة ومصطلحات جديدة وخلق معجم جديد حتى يتم غرسه من جديد في الجيل الجديد، بعد فشل المحاولة الأوروبية الأولى. فلم يكن استعمال مثل هذه المصطلحات المحددة المعينة برينا بل جاء بعد دراسة متأنية ومعقدة. أتت في اطار الترويج للسياسة الفكرية الثقافية والبيداغوجية المفروضة على ابناء شعبنا. "... إن هناك عقلاً شيطانياً ماهراً في صك الاصطلاحات كالنقود (...). الشرق الأوسط الكبير واحد من هذه الاصطلاحات، (...) هذه الفكرة التجارية (زرع اسرائيل) التي خطط لها أناس كذبوا على البسطاء وقادوهم بحشيش الدين لاقامة وطن لهم في فلسطين، لم تكن الكذبة الأولى، ولكنه دأب بني صهيون. والخلاصة في رأيي أن كل حديث يدور عن شرق أوسط كبير أو صغير أو أي اصطلاح آخر يصكونه ما هو إلا محاولة لتمير هذه اللعبة غير المحتملة التي بدت تتضح ملامحها للعالم ولهؤلاء الذين خُدعوا بها من اليهود أنفسهم وهاجروا من أجلها إلى أرض فلسطين..." () وهكذا فالهدف من التأكيد على "الشرق الأوسط الكبير" هو استبعاد مصطلح العروبة بما يعنيه من ازالة مصطلح اجتماعي انساني يشمل كل الأديان الى تسمية جغرافية انطلاقاً من "الغرب المركز" حتى تتسع للدويلات الطائفية والدينية التي بنيت فوق الأرض العربية والتي يتم الاعداد لها وتستوعب هذا الجسم الغريب الدخيل على الوطن العربي الذي يتخذ من الديانة اليهودية أساساً لدعوى "دولة قومية". وهكذا يقبل العرب المتنازلون عن عروبتهم الأمر الواقع الجديد وهو التسليم بأحقية اغتصاب فلسطين. الخطورة في استعمال مثل هذه المصطلحات من قبل بعض القيادات السياسية والفكرية العربية، أنها تهيء الفكر العربي لقبول هذا الواقع الجديد والثقافة الجديدة التي تبشر بها قوى الظلم، لفرض القبول الاغتصاب، وتشريع الاحتلال. ان استعمال مثل هذه المصطلحات هو انتصار لمعجم تريد أن تفرضه القوى

الخارجية علينا. وهكذا فإن تداولها في الخطاب السياسي العربي هو انتصار للشق المعادي للتقدم العربي. اننا لا نشك في صدق ونزاهة البعض من كتابنا العرب ولكننا نشك في وعيهم بالخطورة الكامنة وراء استعمال مثل هذه المصطلحات. هذه الحالة تكشف مرة أخرى عن عقم لدى بعض التيارات السياسية والفكرية العربية في خلق منظومة من المصطلحات الفكرية تعبر عن هوية هذه الأمة وعن الانتماء الخاص لقومية دون السقوط الى الأدنى العنصري ورابطة الدم. أو الارتقاء الى ما يتجاوزها أي ما فوق قومي، أي التمسك بالهوية العربية داخل منظومة وطنية ذات بعد انساني. هذه المنظومة. المعجم اللغوي السياسي والاجتماعي يعبر عن هويتنا وانتماؤنا كجماعة ويكون القاسم المشترك مع حق الاختلاف في الاختيارات السياسية والايديولوجية. فالاعتراف بالواقع القومي كوجود موضوعي وحق العرب في بناء دولة قومية جامعة كأمم الأرض جميعاً، لا يضرب التعدد ولايعني البتة أن نكون نسخ لبعض فمضامين الحكومة تتعدد بتعدد التيارات السياسية والفكرية التي تتواجد في الأمة، الماركسي والاسلامي والليبرالي والاشتراكي والمدافعون عن البيئة... الخ فالتأكيد على مصطلح "الشرق الأوسط الكبير" يهدف الى اخراج البعد العربي والبعد القومي واغراق العرب في جملة من الانتماعات القطرية والقبلية و الدينية تهدف الى بث الفوضى والتشتت داخل العقل العربي. "... ان المستهدف الآن هو الجيل الصاعد - جيل الشباب لاعادة صياغة العقل عن طريق وسائل الاعلام المختلفة المقروءة والمسموعة، ثانياً انه مع الاسف الشديد فإن هناك قوى عربية فاعلة ومؤثرة ومرتبطة بقوى خارج دانرتنا الحضارية العربية بهدف افقادها الأمل ودفعها الى اليأس و"التينيس(...). ان هذه السياسة قد بدأت منذ سنة ١٩٩١ وهي بالنسبة اليه مدرسة كاملة تبث روح الهزيمة والاحباط في نفسية الانسان العربي. () فقد فتحت هذه الحرب الأهلية العربية الأولى تحت اشراف امريكي، الطريق للقوى المرتبطة بالخارج للظهور فأخذت الدعاوي التغريبية الانفصالية بعداً جديداً من أجل فرض ثقافة الاستسلام والمساومة. ان هذه الثقافة الجديدة التي يتم الترويج لها تستهدف الناشئة العربية. وعبرت عن رغبة واضحة في اعادة تشكيل العقل العربي بما يتماشى مع مصالح قوى الهيمنة العالمية وتثبيت نفوذها. فأول ما توجهت اليه هذه القوى هو ضرب الانتماء العربي والمطالبة بالتأكيد عليه في الدساتير والقوانين العامة للدول القطرية. ثم بعدها طالبت بضرورة تغيير أسلوب التعليم، أي الكف على تخريج الأجيال المؤمنة بحق أمتها في تحرير أرضها واستعادة عافيتها ببناء دولتها الواحدة الجامعة لكل الطاقات. هكذا تمحورت مطالب الغرب على ضرب الرموز الثقافية والاجتماعية والدينية في الوطن العربي من صلاح الدين الى عمر المختار وكان العرب هي أول أمة تستعمل رموزها وأبطالها التاريخيين. فعلى الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، تحتفل فرنسا كل سنة بذكرى بطلة من أبطالها هي جان دارك . الذكرى تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة. ولكنها تجسد تاريخ تضحيات شعب فرنسا واستعداده للمقاومة ورفض الاغتصاب الأجنبي . ولكن لم يطلب ولن يطلب منها - ولا حتى من الانكليز- محو هذه الرموز القيمة في تاريخه الخاص . لقد بات واضحاً أن هذه الهجمة تستهدف الرباط القومي العربي وكل ما يساعد على تنميته واذكائه. ان أمريكا تريد فرض هذا المصطلح في الفكر السياسي العربي حتى يتسنى لها: أولاً: منع استخدام تعبير الوطن العربي ، والأمة العربية واستبدالهما بمصطلح الشرق الأوسط الكبير، أو اية تسمية أخرى تكون قادرة على الغاء العرب والعروبة. ثانياً: اضعاف المشروعات على عملية اغتصاب فلسطين وفرض الوجود الصهيوني بالقوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والمعلوماتية. ثالثاً: تصعيد الحرب على مفهوم القومية العربية. باعتبار أن الأمة العربية هي الأمة الوحيدة المكتملة التكوين ولا تملك دولة قومية. فان تأطير المنطقة في تسمية جديدة من شأنه أن يغطي ويتجاوز المطالب القومية المشروعة لشعوب المنطقة، وخاصة المطلب القومي العربي. ذلك أن الشعب العربي مقسم الى العديد من الدوليات تقدمها الدوائر الغربية على أساس أنها "دول قومية". فقد ظلت دولة العرب الواحدة أو الدولة الجامعة للعرب فيدرالية أو اندماجية مركزية أو لامركزية الشبح المخيف الذي سيطر و يسيطر

على الدوائر الغربية. ولا زالت هذه الفكرة تؤرق أصحاب القرار وراسمي المستقبل فيهم. فقد كانت ولا زالت هذه الدوائر تخطط لزرع كل ما من شأنه أن يفرق بين العرب وذلك بتحويل التمايزات الجهوية من عوامل ثراء الى عوامل فرقة وتناحر. نشير في هذا السياق إلى أن روتشيلد بعث في آذار ١٨٤٠ رسالة إلى بالمرستون وزير خارجية بريطانية آنذاك تضمنت القول: "هناك قوة جذب بين العرب، وهم يتطلعون إلى استعادة مجدهم القديم، وإن رد جيوش محمد علي من بلاد الشام وحصر نفوذه في مصر لا يكفي. إن فلسطين هي الجسر الذي يصل عرب آسيا بعرب إفريقيا، وبوابة مصر إلى الشرق. وينبغي إقامة تركيب بشري غريب على هذا الجسر وعند هذه البوابة بما يحول دون الخطر العربي". لقد بدأت هذه الهجمة على العروبة سرية قبل عام ١٩٠٧ وكان الإعلان الأقوى عنها بوثيقة كامبل بترمان رئيس وزراء بريطانيا، القائلة: على قوى الغرب أن تقسم هذه المنطقة، وأن تحولها إلى منطقة حروب داخلية - أهلية، واضطرابات (حدودية) وتوترات، وأن تقيم الحاجز البشري المعادي لسكانها على الجسر البري الذي يصل الأقطار العربية الآسيوية، بأقطار الوطن العربي الإفريقية، وهذا ما أكد عليه أيضاً الصهيوني ناحوم سوكلوف في مذكرته إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٢/٤/١٩١٦، والتي جاء فيها: "إن إقامة كومنولث يهودي بحماية إنكلترا سيشكل جداراً فاصلاً بين السكان العرب في آسيا، والعرب في أفريقيا". إن الوحدة حتى بين قطرين عربيين هي بمثابة الكارثة بالنسبة لكيان (إسرائيل) وحمايتها في المنطقة. وهذا ما عبر عنه رئيس الوزراء (الإسرائيلي) السابق دافيد بن غوريون، بعد قيام دولة الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ حيث قال: "لقد وقعت إسرائيل بين فكي كماشة". لذلك بدأ التآمر على الوحدة حتى لا تنمو ويتسع تأثيرها، فكان الانفصال صبيحة ٢٨ أيلول ١٩٦١ والذي فتح الأبواب مشرعة للدعوات التي تنادي بالتمايز القطري. رابعاً: اضعاف مشروعية للتجزئة التي خلفتها الحروب الأوروبية الأولى والثانية. وذلك بادخال هذا الجزء المفتت والمقسم داخل منظومة جديدة تكون الأجزاء تابعة، ضعيفة لا حول لها ولا قوة. وهكذا يصبح السؤال المطروح ليس كيف يستعيد العرب وحدتهم ويبنون دولتهم القومية المشروعة مثل أمم الأرض جميعاً، بل هو كيف يتم بناء شرق أوسط كبير باجتثاث العروبة وتجاوزها. أي الصمت على كل الاعتداءات التي ارتكبت في حق العرب سابقاً والتي قد ترتكب لاحقاً. خامساً: التسليم بالمصطلح الجديد يعني الاقتناع بأن العرب مجموعة من الأمم مختلفة التكوين والمصالح. والمطلوب هو التعاون فيما بينها بالتنسيق والارتكاز على القوى الخارجية. وهكذا يتم التعامل بين دول موجودة ضعيفة لا حول لها ولا قوة مضطرة بحكم حجمها ومقدرتها على الاعتماد على المعونات الخارجية (المال والذكاء) وهكذا يتم الحفاظ على عوامل تبعية المنطقة للغرب الاستعماري، ولتقوية هذه العوامل، من خلال سياسة الإفقار للعرب، وإجبارهم على التعامل مع الغرب تحت ضغط الحاجة. وهكذا فإن القوى الاستعمارية تحافظ على مركزية بلدانها بالنسبة للعالم. لم يجد المصطلح النجاح المطلوب إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الأموال التي صرفت وهذا الجيش من الكتبة والتجار العرب الذي قاموا بالدعاية له. فكانت هذه القوى كل مرة تقدمه في حلة جديدة عسى أن تجد له أنصار. ورغم الهزائم المتكررة التي تعرضت لها الأمة العربية فإن مصطلح الشرق الأوسط صغير أو كبير بقي للمواطن العربي يحمل المضامين الاستعمارية الغربية. ويتعارض من ناحية شكلاً ومضموناً مع مصالح العرب. وظلت العروبة حاضرة تفرض ذاتها على الرغم من حشد الأساطيل والجيوش، وفرض الحصار السياسي والاقتصادي والعسكري، واتباع سياسة التجويع والتجريف والتخويف. فالتركيب القومي، والاجتماعي والحضاري للعرب من المتانة ومن التأصل بمكان يصعب تجاوزه مهما تعددت الأساليب. إن اكتمال بنیان الأمة العربية تشكلاً، هو عامل المقاومة والمواجهة الآن، هذه العوامل الموضوعية هي التي تصارع وتعيق الرغبة الخارجية في القضاء على الوجود العربي. فهل تستطيع الحركة القومية الانسجام مع التكوين القومي العربي وترد على التحديات المطروحة، بالرغم من حالات التفكك والتجزئي؟ اجابتنا: نعم. السيطرة المباشرة على العقل وعلى الأرض: بعد أن بينا هذا الاصرار على استعمال

مصطلح (الشرق الأوسط) لم يكن وليد ابداعات جورج بوش ولا كولن باول فالمشروع قديم منذ المخططات الاستعمارية الأولى. الذي ينبغي أن نتبينه هو علاقة الشعارات التي تغطيه بمستقبل الأمة العربية. فمهما بدت الشعارات برافة الى حد اعجاب بعض من " مثقفينا" به فإن الشعارات البراقة داخل هذا المشروع مقترنة بالعداء للمستقبل العربي. وتلتقي في ضرب العروبة والحيلولة دون أن يتمتع العرب ببناء دولتهم القومية. ان الاصلاح السياسي والاجتماعي وبناء مجتمع الكفاية والعدل كانت ولا زالت من صلب مطالب الحركة القومية العربية وجوهر حركتها النضالية منذ قرن. بالرغم مما يحتويه المشروع من المطالبة باصلاحات سياسية وثقافية وفكرية.. فكما جاءت الأساطيل الاستعمارية الأوروبية، تحت شعار تحضير الشعوب وادخالها الى عالم الحضارة فان القوات الاستعمارية الأمريكية تدخل الأرض العربية الآن تحت شعارات نشر الحرية والديمقراطية. الهجمة الجديدة تحاول اكمال ما عجزت عنه الهجمة الأولى. الوجود العربي هو المستهدف، القضاء على العروبة لأنها تمثل طوق النجاة لنا من التخلف والانحطاط. وقد أثبتت الهجمة الثانية مدى حاجة العرب لوحدهم ولدولتهم الجامعة. فهذه الهجمة بينت كم هي عاجزة وفاشلة هذه الدويلات القزمية الفاصرة والمقصرة. انها عاجزة على حماية سيادتها وضمان استقلالها!! الذي طالما تشدقت به. الأهداف القريبة والبعيدة تحت شعار الحرية والديمقراطية كثيرة، ولكن يمكن حصرها في ما يلي : أولاً: العمل بالوسائل كلها على مزيد التفكيك والتقسيم الداخلي للعرب لعاقة أي محاولة تنمية وان كانت قطرية حتى لا يتحول الى قوة جذب للاقاليم العربية الأخرى. فالمشروع الأمريكي الذي بدأت فيه وهو جوهر من اهم بنود مشروع الشرق الأوسط الكبير هو تفتيت الأقاليم العربية الكبرى : العربية السعودية مثلاً تقسيمها الى ثلاث دويلات ..السودان الى أربعة دول متناحرة ..الجزائر الى دولتين.. مصر.. ثانياً: ضرب اسس اكمال التكوين القومي العربي من لغة ودين وتاريخ عربي بما يعنيه من ضرب عوامل الوحدة العربية عبر اظهار كل ما من شأنه أن يعزز عوامل التفتيت لدى العرب بالتأكيد على المكونات القبلية والطائفية و اظهارها بمظهر التناقض والتعارض مع الرباط القومي. ان مقومات القومية للعربية من لغة وتاريخ وحضارة ونسيج اجتماعي فكري ثقافي تكون عبر مسيرة أربعة عشرة قرناً تواجه محنة حقيقة من قبل الأنظمة العربية ومن الهجمة الأمريكية والاستعمارية، عبر احياء كل النعرات القبلية والطائفية والجهوية وتشجيعها تحت شعار الحرية والديمقراطية. فتصبح مضامين الحرية والديمقراطية تعني التفتيت والتقسيم والتشتيت للعرب. تمهيدا لفرض التفكير القبلي العنصري بالقوة العسكرية داخل النسيج العربي. للقضاء على أي أمل للأمة العربية في بناء دولتها القومية وقطع طريق التطور، والحدثة، ووحدة الكلمة والموقف. ثالثاً: استبدال القيم العربية، عن طريق فرض سياسة أمركة للمجتمع العربي عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات ومن خلال السياسات الثقافية المتبعة من قبل الأنظمة الاقليمية والقوى القطرية في الوطن العربي. هذا يعني فرض نمط العيش الذي تريده أمريكا قيماً وأخلاقاً. رابعاً: منع تداول اسم الأمة العربية ، وفرض تداول مصطلح أو عنوان المخطط الأمريكي (الشرق الأوسط الكبير بما يحتويه المصطلح من دول لازالت تغتصب الأرض العربية). خامساً: السيطرة المطلقة على الوطن العربي، باعتباره قلب العالم الاسلامي والدول الافريقية والآسيوية والدول الراغبة في الانعقاد من شركات النهب العالمية من خلال امتلاك والسيطرة المباشرة والتحكم بثرواته البشرية والنفطية والمعدنية، وممراته المائية، وفتحات البحار والمحيطات فيه، ومواقعه الاستراتيجية، وأسواق العمل والاستثمار والاستهلاك ، إضافة إلى الهيمنة الكاملة على مؤسساته المصرفية والعلمية والمعارفية. من خلال هذه الأهداف التي حددها الغرب فانه يسعى للسيطرة المباشرة على الأرض العربية ومن ثمة تسيير العقل العربي بما يعنيه من تغيير للمنظومات الفكرية والثقافية العربية حتى تتماشى وسياسة الاستلاب الحضاري التي تمارس ضد المكونات القومية العربية. وقد نبه الدكتور المسفر الى خطورة الوضع مبيناً أن اعداء العروبة تبنوا منهاجاً جديداً في المواجهة، وان الصراع الآن يدور في عقر دار العقل العربي

ويربط ظهور الثقافة الجديدة الغربية مع ما كان سمي بحرب الخليج الثانية (). إذ ظهرت في الوطن العربي نوعية من الكتابة المرتزقة الذين تستخدمهم القوى المعيقة للتقدم العربي فهذا النوع من الكتابة الذي مولتهم وكونتهم الدوائر الخارجية، يلعب دورا سينا في تدمير هوية الأمة. فبالنسبة للمسفر أن الدور الخطير يقوم به بعض من المثقفين العرب الذين يتبنون هذه الأطروحات ويسعون الى تحقيقها. وقد اشار الى خطورة أطروحة بعض المفكرين الذين يدعون الى ضرورة اعادة تقسيم الأمة العربية بما يتماشى والمصالح الغربية وبما يحقق أهداف الصهيونية التوسعية. ان عمليات التقسيم منذ سايكس بيكو تهدف الى ضرب فكرة العروبة ومحو الرباط القومي العربي حتى يمكن دمج مجموعات بشرية غريبة في قلب الأمة العربية. وأشار هنا الى اطروحات برنارت لويس الذي نادى بصراحة الى ضرورة اعادة تقسيم الوطن العربي فنتحول العديد من التجمعات القبلية المتخلفة عن اكتمال النمو القومي العربي الى أوطان تسهل السيطرة عليها وتطويعها. ويحذر أن العرب قادمون على مرحلة خطيرة جدا أول علاماتها هذه المحاولة التي تجري الآن لتفتيت الذاكرة التاريخية للعرب. بما تعنيه من ضرب وتشويه العديد من الرموز الثقافية والحضارية للعرب حتى تسهل عملية غرس مفاهيم جديدة وقيم حضارية وثقافية جديدة تساهم في تطويع الوطن العربي للسيطرة عليه. () لكن نجاح الدعاوي الأمريكية ضعيف لكن الخطر متأت من تلك الحفنة من المثقفين العرب الذين تم ارتشاءهم وشراء ضميرهم. ان بعض الأقلام تم شراءها لتكون رأس حربة في هدم وضرب الثقافة والهوية العربية. يكتب السيد المسفر : " .. هناك اقلاما عربية مسلطة على عقولنا بدعم امريكي وصهيوني وشعوبي لمسح الذاكرة ومسح كل من صنع تاريخ امتنا سواء من الخلفاء او من القيادات العسكرية او القيادات البارزة في الدول الاسلامية العباسية او الاموية او الفاطمية. ومن جهة اخرى لا اعتقد ان هناك محاولة لاعادة صياغة الفكر العربي لان الفكر العربي هو الانتماء والولاء وليس المطلوب مني ان أعيد الصياغة وانما علي ان اعيد كيفية التعامل مع القوى التي تواجهنا اما هذا الفكر فهو ثابت نزل في القرآن وفي تاريخنا وتراثنا، فما هي الصياغة المطلوب مني ان اعيدها. ويذكر السيد المسفر أن هناك من أقلاما عربية تجرأت على الطلب صراحة على تجاوز العروبة ولم يتجرأ أحد على الرد عليها " ... اتذكر انه قبل فترة انعقد مؤتمر في احدى الدول الخليجية وقال احد البارزين في المدرسة الامريكية الذين جاءوا من واشنطن بالحرف الواحد: .. انا قادم اليكم.. لا أريد ان اسمع عن الصراع العربي - "الاسرائيلي" فليس هناك عربوة الآن ولا اريد ان اسمع عن الصراع الفلسطيني - "الاسرائيلي" فليس هناك فلسطين الآن انما كل ما اريد ان نتحدث عنه ونسمعه هو كيف نعالج الايدز والفقر" ، وهذه كارثة كبيرة ان يقال ذلك في وجه مجموعة من الحاضرين العرب ولم يتصد له أحد.... " () ان المثقف العربي التقدمي والعامل في حقل التغيير أمام معادلات جديدة وهو كيف يواجه المشروع أي مشروع الشرق الأوسط الكبير وعدم السقوط في الفخ التغريبي . بدون التفريط في التمسك بمبادئ الإصلاح والديمقراطية. ؟ ان الإصلاح والديمقراطية والتنمية وحقوق الانسان وكل الشعارات التي رفعها أجدادنا وضحي من أجلها أبأونا لا يمكن أن تتحقق الا داخل الاطار العروبي. وأن فكرة مشروع الشرق الأوسط الكبير تذكرنا بالمشاريع السابقة والفاشلة. فكل المحاولات في ربط بعض الدويلات العربية الى مشاريع الأحلاف التي ضمت أكثر من دولة وأكثر من امبراطورية في هذا القرن الأخير. وبفشل مشروع الدولة القطرية بالرغم مما تتمتع به بعض الدول من خيرات وثروات خيالية. لذلك نعتقد ان أي مشروع اصلاح الأوضاع العربية وتغييرها يجب أن تكون: أولا: في اطارها العربي القومي. وعلى اساس اعتبار العرب أمة مثل أمم الأرض جميعا يحق لهم بناء الدولة القومية.. ثانيا: اعتبار أي اصلاح مهما كان نوعه كبيرا أم صغيرا بسيطا أم معقد لا ولن يكتب له النجاح بدون مساهمة جماهيرية فاعلة. ذلك أن الجماهير العربية وحدها تفرض التقدم. ونعتقد غياب هذا البعد الثاني هو الذي ترك العرب ينوسون بين الفشل والضياع. فعندما تغيب الجماهير ويستبد أصحاب القرار، ويفرضون ما يتماشى مع أهوانهم كان من المناسب لهذا المبدأ أن تكون

النتيجة الفشل وما زالت الدوائر الخارجية تصر على فرض رؤيتها بالحديد والنار. اننا على يقين يتجاوز أي شك أنه عندما تسمح للجماهير العربية للتعبير عما يجول في خواطرها فانها ستختار العروبة والوحدة بديلا لكل مشاريع التفئيت والتقسيم . وما على المثقف العربي التقدمي أن يعبر على رغبات الجماهير العربية وطموحاتها. فالأولوية أمام هذه الوضعية الجديدة هو كيفية غرس فكرة الأمة العربية وحققها في بناء دولتها القومية في هذا الجيل الجديد الذي سيواجه التحديات المقبلة ليس هناك في العروبة ما يتعارض ما هو حق انساني لكل أمة تحت الشمس في الدفاع عن وجودها وحققها في الحياة بما تحمله من مقاومة للتدخلات الأجنبية والرفض للاحتلال والاعتصاب، وبناء مجتمع العدل والحرية والديمقراطية وحقوق الانسان. كيف؟ وجهة نظرنا تتلخص في الآتي: لا بد من الخروج من الشعارات العامة، والكلمات العاطفية عن العروبة، والثقافة العربية والهوية العربية. هذا الكلام الشعري جميل لكنه لا يكفي في تحديد مطلب الاصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ذلك أن مواجهة المفاهيم الغربية التي يريدون فرضها علينا ورفضها، تفترض تحديد مفاهيمنا ومصطلحاتنا، ومضاميننا، دون ترمت وعودة الى الوراء بل بالتمسك بالمفاهيم الانسانية المعاصرة والحديثة.. أول تصحيح هو مضمون العروبة ومفهوم الدولة القومية لقد أثبت فشل مفهوم "الدولة الوطنية" و التي نطلق عليها الدولة القطرية طوال الخمسين عاما الماضية عندما تمت ترجمته الى ارض الواقع، فكل العجز الذي عاشته وتعيشه الأمة كان من جراء هذه السياسات القطرية. بالرغم من سيادة التيار القومي أو المطلب القومي طيلة العقود فان الدولة القطرية تمكنت من اجهاض هذا التيار الشعبي عندما قدمت نفسها البديل للدولة القومية. فالدولة القطرية في المغرب العربي استعملت للتخويف من أي عمل وحدوي. والكل يعلم الصراع الذي شهده أديعاء الوطنية في المغرب العربي _ (بورقبيبة) أما في المشرق العربي فقد استعملت القطرية الشعارات القومية لتثبيت وجودها. فالقوى القطرية عندما تمسك جهاز السلطة الاقليمية لا يمكنها أن تكون معادية للشعارات القومية السائدة والمسيطرة في الشارع السياسي ولكن تدخل في عملية مزيدة وهي أنها تشترط أن تكون هي القاعدة وهي القاعدة. فهي تنظر الى الفكرة القومية من خلال المصلحة القطرية وما يمكن أن توفره من أرباح. وهكذا في حقيقة الأمر أن الذي قاد وحكم لم يكن المبدأ القومي ولا الشعار القومي الذي حكم وقاد كانت القوى القطرية وان رفعت شعارات القومية. ان نظرة بسيطة على الفكر القومي وأسسه نلمح التناقض القطعي بين أطروحات هذه الأنظمة العربية القطرية وبين المبادئ المؤسسة للتيار القومي العربي. فالمطلوب أولا هو قراءة جديدة للسلطة السياسية للدولة في الوطن العربي وعلاقتها بمفهوم الدولة القومية الحديثة. () وعندما ننادي بتغيير مفهوم الدولة القومية الذي ساد في الستينات وهي في نهاية الأمر مفهوم الدولة القطرية أو ما اصطلح عليه بمفهوم الدولة الوطنية لا يعنى بالضرورة الانسلاخ عن المكونات الاقليمية والخصوصيات الجهوية فهي باقية ولا تنفي بالضرورة العلاقات القومية بل هي تضيف اليها علاقات جديدة ولا تلغيها. نعني ان فهم العروبة فهما جديدا فهما منفتحا على كل مكونات الأمة، ان المفهوم الجديد للدولة القومية يرتكز على العروبة ولا يتعارض معها مبني على أسس جديدة عمادها حقوق الانسان والمجتمع والديمقراطية والمصلحة العامة واعتقد ان جزءاً من معضلة الفكر العربي هو عجزه عن فهم هذه المعادلة الجديدة. فهو مازال يفهم العروبة اما فهما ثقافيا فيطفق يتغنى بأمجاد الماضي، فيتغزل بالشعر العربي والأدب العربي والعصر الذهبي العربي ثم يلوذ بعدها بشعار التضامن العربي ويقف. أما البعض الاخر فيعرف العروبة تعريفا لا عنصريا شوفينيا. تختلط فيها المكونات القبلية والنزعة الدينية الطائفية، ثم يرفضها ليلوذ برباط القبيلة وفي احسن الأحوال بالرباط ماقبل التكون القومي العربي (فرعوني قرطاجي فينيقي بابلي..). وبغض النظر عن أن دولة عربية جامعة وجدت في الماضي أم لم توجد فاننا نقول بكل يقين أن العرب يمتلكون مكونات الأمة المعاصرة.. أن العرب يمتلكون كل خصائص التكوين الاجتماعي القومي وأن هذا التكوين يتسع لكل المكونات السابقة على الانتماء القومي العربي. اننا بقدر ما نفتخر بعروبتنا

فإننا لا يمكن أن ننكر المكونات السابقة لأنها حلقة من حلقات تطورنا. لكن الذي لا يمكن أن نقبله هو أن نحتج بالقرون الماضية الما قبل التكوين القومي لننصف فعل أربعة عشر قرنا من التفاعل والاندماج وأن قراءة بسيطة وموضوعية لواقع النعرات الطائفية والقبلية تؤكد لنا ، وبعيدا عن التحليل التأمري، أن العامل الخارجي هو المحرك لهذه النعرات والتي تستهدف أول ما تستهدف هو الرباط الاجتماعي لهذه الأمة. فكيف يعقل أن نجد أن دول قومية متقدمة تمنع اللهجات المحلية وتقتسم شعوبا بأكملها وتضعها تحت سيطرتها في حين أنها تمول مراكز البحث وتشجع كل مظاهر احياء اللغات القبلية في الأمة العربية. ان الأمة العربية قادرة على التفاعل مع الآخرين فهي تملك مقومات القوة، وتستطيع أن تخطط أسس جديدة لمواجهة مخططات الآخرين بشكل تلقائي. فالتخلف العربي ليس تخلفا وراثيا لكن التخلف العربي يتركز أساسا على غياب الدولة الجامعة القادرة على تنظيم هذه الامكانيات وهذه الطاقات. المتوفرة في كافة المجالات العرب اليوم أمام قوى استخراة عالمية، مهيمنة، تملك من أسباب القوة والغترسة مما يدفعها وهما أن بإمكانها فرض شروطها على العالم. وتسعى بما تملك من قوة ووسائل ضغط أن تفرض علينا أن نتخلى على عربتنا. ونتنكر لها. وان التنكر لانتمائنا القومي وهويتنا العربية هو التسليم بأحقية اغتصاب أرضنا. وثانيا بمشروعية نهب خيرات هذه الأمة والتصرف فيها. واستخدام العرب عبيد في بيوتهم ومصانعهم. وهذه الدعوة التي ينظر لها البعض في الوطن العربي تواطوا مع الخارج ليست جديدة فهي دعوة قديمة تبنتها ودعت اليها قوى استعمارية أفل نجمها وانهارت أمام صخرات العروبة الصامدة. ألم يكن سايكس بيكو مشروعا معاديا للعروبة ولكنه فشل في القضاء على الجذوة العروبية.. ألم يكن المشروع الاستعماري بوجهه الفكري والثقافي وابعاده الاقتصادية والحضارية الا مظهرا من مظاهر استتصال العروبة من وجدان ومن تفكير العرب. لكنه فشل وهرب الاستعمار أمام ضربات العروبة الموجهة التي قادها رجال الحركات الوطنية... فشل المستعمرون وانتصرت العروبة... ألم يكن مشروع الدولة القطرية أو ما يطلق عليها بالوطنية مشروعا معاديا للعروبة كمشروع سياسي وحدوي. فقد كان شكلها ومضمونها وارتباطاتها لا يمكن الا أن يكون معاديا ورافضا لفكرة الدولة العربية الجامعة الواحدة . في كل الدعوات السابقة التي تنتفض مع فكرة بناء الدولة العربية الجامعة، أتى البعض منها مقتع والبعض الآخر صريح ولكن الهدف واحد هو تأجيل فكرة الوحدة العربية ولما لا رفضها واعاققتها وانتزاعها من قلوب ووعي العرب. فوضعوا تناقضا بين التقدم والعروبة بين الوحدة والمعاصرة والتمدن ونظروا لتناقض بين الدولة العربية الجامعة وفكرة الحرية والديمقراطية. ولما فشلوا يقدمون الآن الديمقراطية والحرية وحقوق الانسان لكن بعيدا على فكرة الدولة العربية الواحدة. يسعون الى اجتثاث العروبة بالحديد والنار بعد هذه العقود من الفشل.. ربطوا تحقيق الديمقراطية وحقوق الانسان بالتطبيع ولكن أين وصلت الدعوة لحقوق الانسان والديمقراطية التي وعدوا بها منذ قرابة أربعة عقود؟ انها لم تر النور ولن تر النور. ان الوضع في بعض الأقاليم ازداد تعقيدا بدفعه عمدا في اتجاه صراعات طائفية أو قبلية قد تطول سنينا طويلة.. لقد فشلت جل المحاولات الديمقراطية وانتصر التوريث والاستبداد فالعروبة لا يمكن أن تكون الا ديمقراطية والا فانها تتناقض تناقض الحياة مع الموت. لا تلتقي فكرة العروبة التي هي فكرة الجماعة مع فكرة الاستبداد التي هي فكرة الفردية والاستفراد. فحينما تنتصر الديمقراطية فان العروبة منتصرة لا محالة. وعندما تنتصر العروبة فانه انتصار للديمقراطية. لأنه يومها نعتبر أن العرب قد مكن لهم من التعبير عما يجيش في صدورهم.. عما يحلمون وينتظرون عبروا عن أهدافهم الكبرى. أن كل خطوة في اتجاه العروبة هي خطوة في اتجاه الديمقراطية وكل خطوة في اتجاه الديمقراطية هي خطوة في اتجاه العروبة. الشعارات العامة التي رفعها مشروع الشرق الأوسط الكبير لم تستر عورته وحقيقته التأمرية. وهي طمس الحقيقة ورفض وحدة أمة فرض عليها من دون أمم الأرض جميعا أن تجزء وتمزق أوصالها الى قطع ودويلات لا حول لها ولا قوة. فهذا "المشروع الاصلاحى والديمقراطى" الذى تم تأطيره فى بعد ما بعد قومى ينوس بين

الرداء الديني الفضايف بتلوناته الطائفية والمذهبية وبين الرداء القبلي العشائري الذي يسقط الى العصور الحجرية أي الى المرحلة ما قبل قومية لا يستطيع أن يغطي الجريمة الحقيقية التي ارتكبت في حق الأمة العربية منذ الاستعمار التركي الى الاستعمار الغربي الى الاستعمار الأمريكي. ان هذه الدعوة المقنعة بأقنعة من مفاهيم عامة، وتنظيرات هدفها طمس المعاني، وتغييب الحقيقة لن تؤدي الا الى مزيد من العنف وتعدد الكوارث وبؤر التوتر على أسس طائفية وقبلية. ان الاستخراب الأمريكي يحملنا على القبول بالعدوان وبمشروعية الاغتصاب. بما يعنيه من ضرب لهويتنا ولمكونات انتمانا العربي. ان القوى الاستعمارية نقلت الصراع الى مستوى هويتنا والى عناصر مكونات انتمانا وخصوصيتنا وحاولت أن تأخذ من مساحات التعدد في أمتنا ومن رحابة الاختلاف والتنوع مدخلا لدق اسفين في هذه المكونات لتحويلها من عوامل قوة الى عوامل ضعف من عوامل اثر الى عوامل تدمير. فكيف يعقل أن تصدر دوائر الاستخراب على نقل الصراع داخل الجزائر العربي بين العرب والبربر أي العودة الى مراحل الصراع القبلي، في حين كانت العروبة ولا زالت وستبقى هي الوعاء الاجتماعي والحضاري الذي يعيش في ظله وفي اطار كل مكونات المجتمع ما قبل القومي. كيف يعقل دعاة التمدن والحضارة والعلمانية أن يعملوا على تأجيج الصراع الديني في مصر بين أقباط ومسلمين في مصر بين مسيحيين ومسلمين في العراق بين السنة والشيعة في العراق بين المسيحيين والمسلمين في لبنان بين الفقراء في السودان تحت تلة العرب والأفارقة. هكذا تصر هذه الدوائر التي ترفع شعارات الديمقراطية والحريّة وحقوق الانسان على تأجيج الفتنة على امتداد الوطن العربي بدعاوي قبلية وطائفية وحيث لا توجد فاتهم يفتعلون ويضغظون على الأنظمة حتى تختلقها ثم بعد ذلك تكون مدخلا لوضع أنوفهم في مشاكلنا الداخلية. أكبر دليل على ذلك هي الضغوطات التي تمارس على تونس الاقليم العربي الذي يعيش حالة انصهار اجتماعي كل ذلك أنه تمكن من استيعاب كل جيوب الانتماءات القبلية والاثنية أي ما قبل الانتماء العربي ودمجها دون المس من عناصر التنوع الاجتماعي فان الأمم المتحدة وأدعاء مقاومة العنصرية تصر على أن تقوم السلطات باحياء النعرات الطائفية والاثنية وتنميتها. وافتعال كشوف لا توجد في ارض الواقع وهذا هو حال تونس العربية. بتأكيد على هذه المصطلحات والمفاهيم تريد هذه القوى أن تنقل الصراع الى مستويات تضيع معها الحقائق التي تخص الانسان العربي في بؤسه وسبل عيشه ودروب نهوضه وتحقيق ذاته. أمام هذا الاصرار التخريبي وهذا الغزو المنظم من القوى الخارجية، نجد أنفسنا مجبورين على ضرورة توضيح وتعريف العروبة والقومية، واعادة النظر في ما مورس باسم العروبة وباسم القومية. انها حقبة تاريخية كاملة تتطلب الدراسة والمراجعة واعادة التقييم حتي يتم لفظ ما لا يتماشى مع مصلحة الأمة. ليست المشكلة في العروبة بما هي هوية أو انتماء تحيل بشكل أساسي على اللغة بما تعنيه من وعي ثقافي، و على المصالح المشتركة بما تتجسد في النسيج الاجتماعي والتاريخي سمته التنوع والتعدد ومرتبطة بالمصير الواحد بما يعنيه من وحدة موضوعية للمشكلات الاجتماعية التي تواجه هذه التكوين الاجتماعي. فالعروبة هكذا ليست تغنيا بالماضي فقط، وليس ثقافة وشعر وأدب كما يحلو للبعض بل تعبيراً عن التجسيد للعيش المشترك في الماضي وهي الاطار الاجتماعي والوعاء الذي به وفيه يمكن ان يتمكن العرب أن يتقدموا ويحدثوا التغيير فالتحديث والتطوير والديمقراطية وحقوق الانسان لا يمكن أن تكون خارج الاطار العربي الذي هو الاطار القومي والوطني. وان محاولات ضرب العروبة كاطار فكري لغوي ثقافي اجتماعي وسياسي هي في نفس الوقت ضرب للديمقراطية ولحقوق الانسان والحدثة. ان المطلوب من الذين يرفضون العروبة تحت دعاوي شتى وتحت تأثير قوى لا تريد لهذه الأمة التقدم أن يراجعوا المفاهيم الخاطئة التي سادت والتي أرادت لها هذه القوى أن تسود. المشكلة التي ندعو الانتباه اليها هي أن بعض دعاة العروبة وأدعيائها كانوا أبعد ما يكون من المدافعين عنها انهم أضروا الفكرة وشوهوها وقرنوها بالظلم والاستبداد. ان أعدى أعداء العروبة هم الذين يرفعون شعاراتها ليحولوها شعارات للفشل. ان الذين فشلوا في ضرب العروبة عن طريق معاهدة

سايكس بيكو هم الذين أوصلوا قوى اقليمية الى السلطة باسم العروبة. وهكذا قدمت العروبة في اطار مخطط استبدادي استغلالي في تواطؤ خطير بين الاستعمار الغربي ورموز محلية طامعة أو طامحة، الى الوصول الى السلطة أو الى البقاء فيها. كما سبق أن ذكرنا أن المآسي التي عانتها وتعاينها الأمة العربية لم يكن وليد سنة أو سنين قليلة. بل منذ مدة طويلة. وكانت منذ الحرب العالمية الأولى حين تم التأسيس لفكر سياسي تفتيتي وتقسيمي للعرب. ان ما يجري الان هو بمثابة محصلة ونتيجة منطقية لسياسة متبعة منذ الحرب الأوروبية الأولى تهدف الى زرع فكرة التجزئة والتقطيع . فمشروع الشرق الأوسط الكبير ليس طارئاً كما قد يتصور البعض بل هو بمثابة تنمة لما كان يعده الطامعون في خيراتنا منذ قرن من الزمن أو أكثر. ان التجزئة التي فرضوها علينا اسست لترسيخ علاقات التبعية للاستعمار وأمام المقاومة الشرسة لأجدادنا زرعوها وهم الاستقلال على أساس التجزئة وهكذا تأسس الاستقلال على العجز والحاجة الى العدو الأجنبي . وهكذا غابت الرؤيا الشاملة عندما لم يتم ربط الاستقلال بمبدأ الوحدة العربية أي تأسيس الدولة العربية الجامعة وكان الاستقلال بعيداً عن التصور الشامل في البناء والتشييد ما بعد الاستقلال فغابت الحرية والديمقراطية، فتم احلال عملية التحرر من الاستعمار بعيداً عن الوحدة و الديمقراطية فجاء مشروع التنمية والاستقلال مشوها يرتكز على الاستعمار ذاته فغابت أسس المجتمع الديمقراطي. فمن الأشهر الأولى ظهرت الحقيقة عندما قدم التحرر بعيداً عن الحرية الفكرية والسياسية وبناء الدولة القومية وكان التحرر من الاستعمار يمكن أن يتحقق ويمكن الحفاظ عليه بعيداً على الوحدة العربية وبناء الدولة العربية الجامعة الحافظة لمكونات العروبة.. السؤال المطروح هو كيفية دفع الصراع الى مستوياته الحقيقية، أي التاريخي الفعلي، بحيث ننقله من مستواه الخاطى الذي يجعله صراعاً بين مكونات الأمة العربية ، الى مستواه السياسي بصفته صراعاً بين دعاة التحرر ودعاة التبعية، مؤداه الاستقلال القائم على حق الأمة العربية في العيش من مواردها الطبيعية، والتمتع بثرواتها الانتاجية.. وبناء دولتها الجامعة لشتاتها. نريد استقلالاً ودولة واحدة جامعة لا تقصي أي جزء من مكوناتها، ذات ثقافة عربية منفتحة ثرية بمكوناتها السابقة أن ثقافتنا العربية، شأن كل ثقافات العالم القديم والحديث، هي نتيجة أو اضافة الى ثقافات قبلية وعرقية وجدت أو ما تزال موجودة. فالثقافة العربية هي تكوين تاريخي تتطور مع تطور المجتمعات فكل مرحلة هي اضافة الى مرحلة سبقتها. فالثقافة العربية تحتوي الثقافات التي سبقتها ولا تلغيها انها تنميها وتطورها مع ما يتماشى مع التكوين الاجتماعي الجديد فالثقافات القديمة ما قبل القومية تبقى موجودة لكن ما بقي منها لا يتعارض ولا يتناقض مع الثقافة الجديدة التي هي بدورها ستطور الى ثقافة جديدة تتناسب مع التطور الاجتماعي الجديد الذي سيخلق من خلال تفاعل البشر فيما بينهم وتفاعل البشر مع الطبيعة . فالثقافة العربية بحكم التطور الاجتماعي مجبرة أن تتحاور مع ثقافات أخرى فهي ليست مقدسة وليست نهائية انها تتطور مع التطور الاجتماعي والحضاري لهذا نؤكد أن حوار ثقافات لا يلغي الهوية او الانتماء، انما يؤكد ثراءهما. ولكن هذه المساهمة وهذا الحوار يسقط عندما تواجه الأمة عدواناً وغزواً خارجياً فان الانطواء والانغلاق عادة هو ما يميز التفاعل مع الحضارات الأخرى. لذلك نرى ان الأمة العربية لا تستطيع أن تساهم في حوار حضاري وهي مفتتة مكبله عاجزة. في الختام : نؤكد ان المصطلحات التي تسعى الى تعويض العروبة مثل "الشرق الأوسط الكبير" و"المغرب الكبير" و"وادي النيل" وكل التسميات التي شابقتها وعملت على اقصاص العروبة واستبدالها بهذه التسميات لم يكتب لها النجاح، ولن يكتب لها النجاح. السؤال المطروح لماذا كل هذه المحاولات التي استعدت العروبة فشلت ولاقت رفضاً شعبياً لا نظير له؟ الاجابة بسيطة جدا وهو ان العروبة ليست افتعالاً وليست اختلاقاً انها تعبر عن انتماء تاريخي عن تشكل موضوعي . في حين أن التسميات الأخرى هي تعبيراً عن ابتداء وليس ذات علاقة بحقائق التاريخ والجغرافيا. اضافة الى ذلك فان هذه التسميات ارتبطت بالقمع والفسل على كل المستويات. في حين أن العروبة ارتبطت بالتحرر وبالتحرير والديمقراطية. لذلك نجد أنفسنا واثقين من أن كل خطوة في

اتجاه الديمقراطية هي خطوة في اتجاه العروبة ولا نشك لحظة أنه يوم يسمح للشعب العربي أن يختار بعيد عن القهر سيختار العروبة ويرفض ماعداها. وليس هناك شك الآن أن الذين يريدون صنع المستقبل والتقدم مجبورين بحكم قوانين التطور الاجتماعي ان تكون حركتهم في اطار بعدها العربي، والا فان الفشل والخيبة سيكون حصادهم..

فتحي بالحاج